

أطروحة فعل القراءة عند فولفغانغ إيزر مقاربة في تاريخية المفاهيم

نبيل محمد صغير باحث أكاديمي
جامعة تيزي وزو

مقدمة:

يروم بحثنا هذا إلقاء الضوء على واحد من أهم التحولات والمنعرجات الحاسمة في الفكر والفلسفة النقدية الألمانية المعاصرة، التي كانت على الدوام في صيرورة وتحول يصعب ضبطها والتنبؤ بالمسار الذي تتجه إليه. لقد جاء هذا المنعرج الحاسم مع مدرسة كونستانس النقدية - على غرار مدرسة فرانكفورت المعروفة بفلسفتها الاجتماعية التواصلية- بحيث استطاعت أن تعيد النظر، بطريقة فلسفية، في العديد من الثنائيات المرتكزات التي ظلت تحكم الفكر البشري في عمومه، والأوروبي والألماني على وجه مخصوص.

لقد أعادت تلك المدرسة عبر نظرية التلقي/ الاستقبال* في عمومها، وبمختلف اتجاهاتها، النظر في العلاقة التي تحكم النص والكاتب والمتلقي، هذه العلاقة التي يمكن إدراجها في إطار علاقة الثنائية المشهورة: ذات / موضوع؛ الذات يمكن سحبها على تلك الذات الكاتبة أو المؤلفة، والذات المتلقية أو المستقبلة. وبين النص، من ناحية ثالثة، الذي يمكن اعتباره موضوعا مُتصارعا حوله.

قبل تلك الأبحاث التي قام بها عدّة مفكرين ونقاد من مدرسة كونستانس كانت المناهج النقدية والفكرية- التي تسيّرنا مجموعة من الخلفيات الفلسفية والإبستمولوجية، تميل إلى التركيز على الموضوع/ النص، وتُهمل الذات بنوعيتها؛ ونحن نقصد بهذه المناهج، تحديدا، المناهج البنوية الحايثة التي نسبت المعنى/ الحقيقة كلها إلى النص ونسفت الذات نسفا بإبعادها عن تخوم المعرفة و الصواب.

لكن، يجب التنويه إلى نقطة مهمة، في النقد الغربي بخصوص علاقة الثنائية الفلسفية: ذات / موضوع، وهي أن المناهج السياقية أو الخارجية التي سيطرت عليها الفلسفة التاريخية بالنسبة للنقد التاريخي، والفلسفة النفسية بالنسبة للنقد النفسي، والفلسفة الماركسية بالنسبة للنقد الاجتماعي؛ هذه المناهج التي ما فتأت تركز على الذات الكاتبة مهملة الذات المتلقية ومعتبرة إياها إضافة لا تؤثر في موازين المعنى / الحقيقة.

لهذا قلنا، وسنقدم في ما بعد أدلة أخرى، بأن مدرسة كونستانس شكّلت منعرجا على المستوى الفلسفي قبل المنعرج النقدي، فهي التي حوّلت موازين القوى إلى الذات المتلقية، ولكن لا يجب إنكار تلك الفلسفات والتيارات النقدية التي استقت منها العديد من المفاهيم والمقولات؛ وسوف نقوم بالبحث في تلك العلائق والتأثرات في مكائدها المخصوص.

ورغبة منا في التدقيق والحصر المنهجي، وكذلك، لصعوبة البحث في جميع أعمال مدرسة كونستانس الألمانية، كان لزاما علينا التركيز على مفكر وناقد واحد، وقد وقع اختيارنا على أهم النقاد الذي قدّموا أعمالا مهمة في إطار توجه فلسفي جديد، إلى حد بعيد، وهذا الناقد والفيلسوف الألماني هو فولفغانغ إيزر¹ الذي شكّلت طروحاته موضوعا شائقا لنا، لكن هذا التركيز لم يجعلنا نلغي، إلى حد معين، مجهودات زملائه التي كنا نستشير بها للمقارنة والتحليل والنقد في كثير من الأحيان.

كذلك، من الأمور التي حفّزتنا على البحث في إيزر، تلك التزعة الفلسفية التي كانت تتحكم في عديد من آرائه التي كانت تصبوا- عبر تأثير واضح من فلسفة التواصل** - إلى إقامة نوع من التواصل الذهني بين النص والمتلقي من خلال

ذلك التفاعل البيّناتنصي الذي يحدث عن طريق فعل القراءة، هذا التواصل الذي نجده ضمن أهم الأهداف التي سعت إلى تحقيقها الفلسفة الألمانية التي أرادت نتيجة العديد من الظروف؛ الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الخروج من فلسفة الذات والاهتمام بالآخر. وقد رأينا أن إيزر قد سعى إلى إقامة تواصل على العديد من المستويات لعل أهمها هو ذلك التواصل بين بنية النص ووعي المتلقي، وقد تساءلنا في هذا البحث عن سبب إلغاء حضور الذات الكاتبة في العملية التواصلية.

جاء بحثنا مضبوطا بعنصرين حاولنا التقيد بهما قدر المستطاع لنصل إلى سبيلنا المرجو فرأينا أن يكون العنصر الأول تبياننا للخلفيات الفلسفية الألمانية وغير الألمانية - الفينومينولوجيا الهيرومينوطيقا، الشكلانية وفلسفة الجشطالت إلخ... - التي حكمت نظرية فعل القراءة في خطوطها الكبرى العريضة، وعلاقة هذه النظرية بأعمال مدرسة كونستانس النقدية وبطروحات ياكوبسون الذي حاولنا فهم فهمه للعلاقة بين الثنائية الفلسفية (المتلقي والنص) ومقارنتها بفهم إيزر. أما العنصر الثاني، فجاء تركيزا على طروحات إيزر النقدية التي بسطها في كتابه "فعل القراءة" والذي شكّل نقلة نوعية في مسار نظرية التلقي بعد أن أعاد الاعتبار، ولو بصفة جزئية، للنص/الخطاب، في إطار حديثه عن الفراغات النصية والبياضات التي لا تُملأ إلا بموسوعة فلسفية وفكرية يحملها القارئ والفاحص لتلك النسيج النصية.

I. الخلفيات المعرفية والعلائق الإستيمولوجية لنظرية التلقي:

لقد نشأت نظرية التلقي في ظل "حوار عميق مع المناهج التي هيمنت بعد الحرب العالمية الثانية، كالشكلانية والبنوية والسيميوطيقا ونظرية التواصل والمقاربات الماركسية والتحليل النفسي للأدب، ومع الخلفيات الإستيمولوجية والفلسفية والإيديولوجية التي وراء تلك المناهج"² لهذا السبب ارتأينا أن نقدم لمحة للعلاقة التي تربط التلقي في عمومها وفعل القراءة في خصوصه مع تلك النظريات المختلفة من عدة جوانب وزوايا.

إلا أنه يمكن القول، بلا مواربة، أن التركيز بطريقة مباشرة وصريحة على دور القارئ والمتلقي لم يبرز إلا مع نظريات ما بعد الحداثة (Postmodernisme)، خصوصا مع تطور النظريات الحديثة، كالتأويلية، والفينومينولوجيا، والتداوليات، والنقد الثقافي، والنقد النسائي والتاريخية الجديدة³، لكن المتأمل في بعض النظريات النقدية والاتجاهات الفلسفية الأخرى يلمح بعض مظاهر الحديث عن دور القارئ، ولو بطريقة ضمنية، ولهذا سنتحدث عنها، أولا، لنعرج فيما بعد إلى النظريات النقدية المعاصرة والتيارات والحركات الفكرية التي صارت بدور وأهمية القارئ وأفضليته على المؤلف وعلى العمل ذاته⁴

1- الحركة الشكلانية الروسية:

إنّ التراث الشكلاني الروسي، كما هو معروف في أوساط الباحثين والطلبة، يُركّز على شكل المادة لا مضمونها، معوّلا في ذلك على عدة مفاهيم ومصطلحات مفاتيح لتجسيد هيمنة اتجاه الشكل على المضمون؛ الجسد على الروح من زاوية فلسفية. ومن ثم، حاول أن يجعل من تلك المصطلحات والمفاهيم مداخل أساسية والأداة التي تحدث الاندهاش والتعجب عند قراءة الشكل الأدبي⁵، ومن هذه المداخل والمصطلحات المفاتيح نعرض ما يلي، من أجل أن نتبين حقيقة حضور الذات القارئ بطريقة ضمنية في بعض أشكالها ونواميسها المتحركة في سيرها وبلورة أهدافها وتشكيل استراتيجياتها، ومنها نذكر:

1-1 - في مفهوم التغريب (la défamilisation) : لقد استخدم فيكتور شلوفسكي هذا المصطلح للتعبير عن واحد من

أكثر مفاهيمه جذبا للانتباه... ويذهب في فهم هذا المصطلح إلى أننا لا نستطيع أن نحافظ على نضارة إدراكاتنا

للموضوعات ... ومن ثم، فمهمة الفن، تحديداً، هي أن يعيد إلينا الوعي بالأشياء التي أصبحت موضوعات مألوفة لوعينا اليومي المعتاد⁶.

إذا حاولنا أن نتأمل في هذا الكلام المهم باستبصار وتدقيق سنجد رامان سلدن يؤكد أن التغير يتزع الألفة عن الأشياء / المواضيع، عبر إعادة تشكيلها بطريقة مخصوصة ومفارقة لمثيلاتها الأخرى. لكن من زاوية ثانية يمكن لنا، بل يحق لنا، أن نفهم أن هناك إشارة طفيفة للذات المستقبلية، من خلال تأكيدنا أن ذلك التغير لا يمكن أن يحدث بمنأى عن الذات الواعية التي لا تستقبل الموضوع بالطريقة نفسها، عندما تستقبله في حالات أخرى، فعلى سبيل المثال، عندما نقرأ نصاً روائياً أو شعرياً فيه لمسة فنية، بحيث تدركها الذات القارئة، فإن تلك اللمسة الفنية لا يمكن لنا أن نحصرها في الشكل، ولو كان ذلك لزال الألفة عن ذلك الموضوع، ولما حدث التغير. بمجرد تكرار القراءات واستمرارها. وهذا دليل على فاعلية الذات البشرية وقيمتها في إحداث التغير. ولعل هذا القول لرامان سلدن دليل على كلامنا. يقول سلدن: "إن غرض الفن هو نقل الإحساس بالأشياء كما تدرك وليس كما تعرف.... لأن عملية الإدراك غاية جمالية في ذاتها ولا بد من إطالة أمدها"⁷، ومن ثم، تنويعها وتأكيد مفارقاتها فيما بينها، ولعل هذا يقترب، جزئياً، من فكرة إيزر حين يقول: ما هو أساسي بالنسبة لقراءة كل عمل هو التفاعل بين بنيته ومتلقيه"⁸، فلا البنية الشكلية لوحدها، ولا فعل التلقي يكفي، لوحده، في إبراز الجمالية الكامنة داخل النص وتحقيق فعل التغير، وإنما يقتضي تحقيقه، بطريقة معينة، تساند هماً في تلك العملية.

1-2- في مفهوم القص/ السرد (la narration):

يمكن تحديد هذا المصطلح وموضعه في مقابل مصطلح الحكيم، وهو، بتعبير آخر المبنى الحكائي الذي يقابل، بدوره، المتن الحكائي.

يُعرف أرسطو مصطلح الحكيم بأنه: "ترتيب الأحداث الواقعة"⁹، وهذا الترتيب يكون بطريقة منطقية؛ أي بتسلسل زمني ومكاني في حدود الممكن والواقع، أما السرد فهو التنظيم الفني للامنتقي للأحداث التي تصنع شكلاً مسروداً/ قصة¹⁰، وقد تبوأ التمييز بين هاتين الثنائيتين مكاناً محورياً في طروحات الشكلانيين الروس، إذ هم يؤكدون على أفضلية السرد والمسرد على الحكيم والحكي، فالأول، حسبهم، هو الذي يتمتع بخاصية الأدبية، أما الحكاية فهي مجرد مادة خام تنتظر يد المؤلف الذي يعيد نسجها وترتيبها في سياق رمزي غير منطقي في معظم الحالات لا كلها.

لكن، وحسب سلدن لا يمكن حصر السرد في التنظيم المغرّب للأحداث والشخصيات الحكائية، وإنما هو الاعتناء بتلك الاستطرادات والحيل الطباعية وإحلال جزء من الكتاب محلّ غيره، وهنا يبرز فعل القراءة والتلقي، موازياً لفعل الكتابة والتأليف، ضمن خصوصية التجربة الذاتية الواعية في الكشف عن تغريبية تلك الأحداث ونوعية الاستطرادات والحيل الطباعية المستعملة، وهذا قريب، إلى حد كبير، من حديث إيزر عن البياضات والفراغات التي يشرع القارئ في ملئها أثناء القراءة، بحيث يشرع في إعطائها المعنى المنشئت حسب نوعية القراءة ومستوياتها الإجرائية. ففهم لا منطق الأحداث الحكائية داخل العمل السردى مقصور بدرجة كبيرة في ملئ البياضات والفراغات بطريقة معينة؛ وهي إعادة طريقة واعية ومنطقية إلى مكانتها الطبيعية / ممكنة الحدوث. يقول إيزر فيما معنى حديثنا: "النص ذاته لا يقيّد إلا بمظاهر خطاطية، يمكن، من خلالها، أن يُنتج الموضوع الجمالي عبر عملية قراءة قارئ معين ومخصوص مغروس داخل البياضات النصية، يسميه إيزر بالقارئ الضمني؛ أي ذلك الذي يولد داخل نسيج النص وأنساقه عند بداية ملئ الفجوات الفارغة، والبياضات، فلا يكون دوره مقصوراً على تعديل آفاقه حسب ما يمليه النص عليه، بطريقة آلية معيارية، وإنما يتم عبر

تفاعل البنية الذهنية الخاصة بالمتلقي المرتكز على ذخيرة لغوية معينة، وبين البنية النصية، المنسوجة بطريقة معينة، على مختلف مستوياتها اللسانية، بحيث أنه يكون فعالاً ومنفعلاً؛ فهو فعال في إنتاجه للمعنى، ومنفعل في حقيقة أن البنية النصية هي التي تحدّد موقعه، وليس العكس¹¹، وهنا جانب مهم من عملية التفاعل البيّناتنصي.

1-3- في مفهوم التحفيز (la motivation):

إنّ محاولة ربط التحفيز ببعض استراتيجيات فعل القراءة يمكن أن تتحقق في نطاق ضيق، لكن لا بأس من الحديث فيها، وتوسعتها من أجل تأكيد فكرتنا القائلة بحضور المتلقي ضمنياً في التراث الشكلي.

يمكن تعريف التحفيز بكونه أصغر (وحدة المحفز / Le Motif) داخل السرد¹²، وهذه الوحدة هي المتحركة في تسيير منطق ولا منطق السرد- على حد سواء- في أحداثه وشخصياته؛ إذ بدونها يجد السارد صعوبة في مواصلة عملية السرد. لقد ميّز توماشوفسكي بين الحافز المقيد والحافز الحر وذلك بالنظر إلى طبيعتها أو خاصيتها¹³، أما الأول فهو الحافز التي تتطلبه الحكاية أو القصة، أما الثاني فهو حافز غير أساسي من وجهة نظر الحكاية أو القصة¹⁴، فعند فتح النافذة في النص السردى وشروع شخصية من الشخصيات في الحديث عن حادثة قديمة يشكل حافزاً حراً، أما نفاذ الرصاص لمقاتل داخل معركة وتعرضه للموت أو لجروح فذلك حافز مقيد.

إن هذه الحوافز في تشكيلها وانتظامها النسقي يجب أن تعبر "عن وحدة جمالية، فإذا كانت الحوافز أو مركباتها غير متسقة اتساقاً كلياً داخل العمل، أو بقي القارئ غير راضٍ عن الصلة فيما بين هذا الموكل والعمل بأجمعه، فإنه يقال بأنّ هذا المركب لا يلتحم بالعمل، إذا كانت أجزاء العمل سيئة الاتساق، فإن العمل ينحل"¹⁵، وإذا تأملنا هذا النص الذي يرجع لتوماشوفسكي فإن تلك الحوافز تمنحن عبر مهارة القارئ وتذوقه لها، وهذا دليل آخر، ولكنه حرجي، على أهمية القارئ في تشكيل شكل النص والتحكم في مقبولية الحوافز والقائل باتساقها من عدمه. وهذا نص آخر ينصب في إطار المصّب الذي نغذو إليه ومكمل لفكرة الاتساق في الحوافز: "يجب أن نضع في اعتبارنا، أيضاً، وجود إمكانية تحفيز مزيف. إن مؤثرات ومراحل يمكن أن تدرج بغرض تحريف انتباه القارئ عن الحكاية الحقيقية"¹⁶، فبنية النص وحوافزه يمكن أن تؤثر في استجابة المتلقي وخرق أفق انتظاره، بل وتؤدي في أحيان إلى تغييره.

2- تأثيرات فلسفة الجشطالت:

تعد فلسفة الجشطالت¹⁷ من أهم الفلسفات التي شكلت الأسس الابستمولوجية للنظرية الشكلانية، فقد أكدت على قيمة الشكل في كليته وفي شموليته، لا في كونه ذرات وعناصر مشتتة كما نظرت إليه النزعة الجزئية والنسبية التي ترى العالم أجزاء لا تربطها علاقات معينة سوى أنها مجموعة بالاعتباط. هذا وقد استفاد إيزر من الخصائص النوعية والمقولات الفلسفية التي ميّزت هذه الفلسفة عن غيرها، لكن أين تظهر هذه الاستفادة بالضبط؟.

يقول الباحث والأستاذ محمد سالم سعد الله في هذا الصدد: "يرتكز إيزر على فرضيات (الجشطالت) في تكوين الوحدة الكلية، وخلق التماسك الدلالي لفهم النص، والقراءة عنده هي إعادة تركيب مستمر للتجربة، وهي عملية جدلية للاتصال بالنص، الذي يُعاد فيه تنظيم الأجزاء المكونة للوجود الملموس في صيغ كلية، وتندمج هذه الأجزاء في مستويات أعلى من التماسك والتوافق والتلاؤم بالاعتماد على القارئ لا على بنية العمل الإبداعي، وبذلك لا يمكن فصله عن العوامل الذاتية"¹⁸، فالقارئ يعيد تنضيد وترتيب الأجزاء الكلية المكونة للنص حسب رؤيته الذاتية وبتأثير من خصوصيات الظاهرة النصية، وهذا يندرج في صميم طرح إيزر.

أيضا، لقد ركزت المدرسة الجشطاطية على سيكولوجية التفكير، وهي عملية غالبا ما تظهر خصائص لا يمكن تفسيرها تفسيراً مناسباً. مجرد النظر في الأجزاء فحسب¹⁹، بل بالتركيز على تلك العمليات الذهنية التي تساهم في ربط تلك الأجزاء ضمن وحدة كلية جامعة لها.

من أهم خصائص الفلسفة الجشطاطية وأفكارها الأساسية نذكر ما يمكن أن يكون قد أثر في رؤية إيزر للتلقي، ومن إوليائهما نذكر ما يلي²⁰:

قانون الانتظام: تكون فيه الصور المدركة تتركب من عناصر جزئية انتظمت فيما بينها وشكلت صورة كلية ويكون إدراكنا لكل أسبق من الجزء، فإدراك النص في كليته أسبق من جزئياته التي جعلها إيزر في المرتبة الثانية من أجل تعمير الفراغات النصية الكلية.

قانون البروز: وهي تتم بعد النظر في الصورة الكلية الشمولية، إذ بعدها يتم الرجوع إلى أهم الصور التي تكون أولا بالإدراك من غيرها وهي عند إيزر تلك الجوانب النصية التي تخلق في المتلقي الدهشة والإعجاب وتحدث فيه استجابة مفهومة يالوس.

قانون التقارب والتشابه: يمكن تعريف قانون التقارب بأن الأشياء المتجاورة أو المتقاربة في الزمان والمكان ندرتها كصيغة مستقلة، بخلاف الأشياء المتباعدة، وهي في نطاق إيزر تساهم في إحداث الأثر النفسي للمتلقي الذي يواجه صعوبات في إقامة التقارب فيما بينها. هذا بخلاف قانون التشابه الذي يشير في معناه الكلي إلى أن الأشياء المتشابهة في الحجم والشكل واللون تميل إلى إدراكها كصبيغ متميزة، وهذه الصبيغ المتميزة تخضع في الغالب حسب إيزر إلى التلقي المباشر بالعودة إلى قانون الاستجابة الذي تكون بفضل مجموعة من التأثيرات المكرورة بين الذات والموضوع.

يقول إيزر مؤكداً على حتمية القراءة المتسقة لأجزاء البنية النصية: "إنّ القارئ مرغّم على القراءة التدريجية، لذلك يندمج في بنيت النص، ويعدّل كل لحظة مخزون ذاكرته في ضوء المعطيات الجديدة لكل لحظة من لحظات القراءة، وغاية وجهة النظر الجواله للقارئ هي بلوغ التأويل المتسق²¹، وهذا قريب من الرؤية الجشطاطية.

3- في تأثير الفينومينولوجيا:

بعد الحطام الذي آلت إليه أوروبا في عام 1918، وغداة كارثة الحرب العالمية الأولى والثانية اجتاحت القارة موجة من الثورات الاجتماعية، فشهدت الأعوام حوالي 1920 انتفاضة سبارتاكوس في برلين والإضراب العام في فيينا واحتلال المصانع بالجملة في كل أنحاء إيطاليا. سُحقت جميع هذه التمردات بعنف... كذلك، كانت الإيديولوجيات التي تعود النظام الاعتماد عليها، و القيم الثقافية التي يحكم بها تعاني هي الأخرى من اضطراب عميق.... وبدأت الفلسفة ممزقة بين تلك الوضعية من جهة، وبين نزعة ذاتية لا يمكن الدفاع عنها من جهة أخرى، وتفتشت أشكال التزعزعات النسبية واللاعقلانية، وفي هذا السياق الفكري حاول الفلاسفة الألمان ممثلين في أبرزهم، وهو إدموند هوسرل منح الفلسفة الألمانية الترياق اللازم للخروج من هذه الأزمة، فكان الترياق متمثلاً في خيار وحيد وهو العودة إلى علم للروح مكتف بذاته تماماً²² عبر مؤلفه المشهور أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية.

فقد جاء المنهج الفينومينولوجي⁺ ليؤكد على ضرورة العودة إلى أحداث الوعي الداخلية من أجل تقديم يقين جديد عن ماهية الأشياء والإنسان²³، وقد استمر في هذا المبحث الفلسفي العديد من الفلاسفة وتلامذة هوسرل؛ من أبرزهم إنجاردن.

من أهم المفاهيم الأساسية في الفينومينولوجيا التي أثرت في إيزر، نجد مفهوم التعالي / الترנסدنتالية الذاتية التي تقول بفكرة أساس هي أن المنطق والرؤية الذاتية هي السبيل الأكيد في تحديد الموضوع الخارجي؛ إذ لا قيمة للخارج بمعزل عن الداخل. ومن أهم المقولات الأخرى التي أسست لها الفينومينولوجيا تكمن في نفي العلاقة الوحيدة الاتجاه بين الموضوع والذات، التي تقضي أن ينطبع الموضوع أو يتجلى بصورة موضوعية في الوعي²⁴

يقصد هوسرل بمفهوم التعالي تلك العمليات التي يقوم بها الأنا المتعالي باعتباره بديهية يقينية، وذلك بعد الارتداد من عالم المحسوسات الخارجية المادية إلى عالم الشعور الداخلي الخالص، دون أن يكون للعقل أي دور قيادي على الطبيعة _ بصيغة قبلية، كما هو فهم كانط لهذا المصطلح - كما أن الأنا المتعالي عند هوسرل يقوم بوصف وتحليل الأفعال القصدية للشعور الخالص²⁵، فبعد تصوير المظاهر الخطاطية في النص تتم عملية تأويلها من منظور ذاتي آني في نطاق التلقي لا عبر الأحكام العقلية القبلية كما هو هذا المفهوم لدى كانط.

يقول هوسرل في كتاب دروس في فينومينولوجيا الوعي الباطني بالزمن: " ففي إدراك النغم لنا أن نميز منه الصوت المعطى الآن، والمسمى بالصوت المدرك والأصوات اللامدركة، ومع ذلك فالنغم جميعه إنما يوصف بالنغم المدرك، وليس يدرك منه حقاً إلا الآن الحاضر.... إن وحدة الوعي المسكي إنما يواصل مسكه لنفس الأصوات المنقضية في الوعي، وهمه على هذا النسق إنما يحدث وحدة الوعي ذات التعلق بالموضوع الزمني الواحد"²⁶، وهذا خير دليل على قيمة الوعي الداخلي في القبض على المعنى، وعلا قيمة الأصوات غير المدركة في تأثيرها على المتلقي .

تظهر استفادة إيزر من طرح هوسرل في مفهوم التعالي بصيغة واضحة فإيزر يؤكد على أن الموضوع الجمالي لا يتكون من الموضوع الفني إلا عبر صبغة الوعي الداخلي (سنتحدث مطولاً حول هذه النقطة الأساس من عدة جوانب مختلفة؛ فلسفية ونظرية وإجرائية). يقول إيزر في هذا المنحى: " التفاعل بين بنية العمل ومتلقيه هو السبب الذي جعل النظرية الظاهرية (الفينومينولوجيا) للفن تولي، على نحو لافت للنظر، اهتماماً لحقيقة أن دراسة العمل الأدبي ينبغي أن تعنى، ليس فقط، بالنص الفعلي وإنما بالأفعال المتضمنة في الاستجابة لذلك النص. فالنص نفسه يعرض، ببساطة، "جوانب مخططة" من خلالها يمكن إنتاج الموضوع الجمالي للعمل"²⁷ وقد استدل إيزر برومان انغاردن في هذه الفكرة؛ أي حين جعل النص خطاطة مشفرة لا تقدم نفسها بسهولة، وإنما يُحلّ تشفيرها بفضل ذكاء القارئ وموسوعته المعرفية. تحت عنوان فرعي موسوم "فينومينولوجيا القراءة" يحاول عبد الكريم شرفي أن يعلّل تطوير إيزر لفلسفة فينومينولوجية لتحليل فعل القراءة باعتباره عملية لتجميع المعنى أو لبناء الموضوع الجمالي في وعي القارئ²⁸.

من المفاهيم الفينومينولوجية الأخرى التي استفاد منها إيزر نجد مفهوم القصديّة أو الشعور القصدي أو الآنية ويرتبط حساب الظواهر فيه بلحظة وجودية محضة، فالمعنى لا يتكون من التجربة والحساب والمعطيات السابقة وما إلى ذلك من معايير التفكير الحتمي وفلسفة كانط الوضعية²⁹، التي تحتكم إلى براديجمات عقلية قبلية. والتي استعار منها هوسرل مصطلح التعالي وأصبغه معنى آخر مخالف للدلالة الكانطية .

يقول هوسرل مبيناً كيفية تحلي الأشياء داخل أذهاننا: " لقد فطن الناس في علاقاتهم مع بعضهم منذ مدة طويلة إلى هذا الاختلاف الذي يوجد بينهم بشأن ما يعتبرونه موجوداً، لكن ذلك لا يجعلنا نعتقد أن هناك عوالم كثيرة، بل إننا نعتقد ضرورة بوجود عالم واحد يضم الأشياء نفسها التي تختلف فقط من حيث كيفية تجليها لنا"³⁰، فالشيء الواحد من منظور عدة أفراد لا يستقر على صورة واحدة بل هو متغير تبعاً لكيفية تلقينا لها.

في مفهوم القصيدة عند إنجاردن يبين سعيد توفيق أن العمل الفني والأدبي، بل وحتى بعض الأعمال الفكرية والفلسفية - من منظور إنجاردن - هي بمثابة مواضيع قصيدة صادرة عن رؤية المبدع أمّا فعل تحقيقها، فهو نشاط قصدي ينجزه المتلقي؛ فمن خلال العلاقة الجامعة بين الموضوع القصدي المتكون داخل ذهنية المؤلف والنشاط القصدي المتكون داخل ذهنية المتلقي تؤدي إلى إنتاج الموضوع الجمالي³¹، وهذا دون إطالة في الحديث صميم فكرة القطب الفني والقطب الجمالي في رؤية إيزر. وإن كان هناك خلاف بين الفجوات التي يقصدها إيزر والجانب النسقي الجمالي في رؤية إنجاردن باختلاف مدونة الأدب التي اشتغلوا عليها.

لقد ذهب إنجاردن عام 1968 - تقريباً في الأعوام التي كان يشتغل إيزر حول مشروعه - إلى أنه لو قمنا بدفع الأمور بقدر كافٍ، فإن القارئ له إسهام مكافئ في الأهمية في إدراك النصوص. وعلى ذلك فإن العالم قد ينقلب رأساً على عقب بقدر اهتمامنا بإبداع المؤلف authorship، لأن النصوص لا يكون في مقدورها مواصلة التبدل والحدوث بذاتها، كما لم يعد في مقدور الفنانين والمؤلفين - الذين منحوا هذه النصوص الوجود - أن يدعوا الامتلاك الأحادي، إن جاز التعبير، لمعنى نصوصهم. فإن نحن قمنا بترجمة هذه الفكرة إلى مصطلحات نظرية الاستقبال (هي النسخة الأمريكية من نظرية التلقي)، فيمكن أن يصبح المتلقي في هذه الحال مساوياً، أو مكافئاً في الأهمية لمُرسل الرسالة³².

4- في تأثير الهيرومينوطيقا:

يصعب إيجاد علاقة بين هيرومينوطيقا غادامير وفعل القراءة لدى إيزر لأنّ طروحات غادامير كان لها التأثير الكبير على ياكوس، لكن نظراً لاستفادة إيزر من طروحات ياكوس كان من الواجب بمكان استعراض ذلك التأثير؛ إذ أن محور نظرية التلقي الذي لا يختلف عليه أيّ من أقطاب النظرية منذ ظهوره في الثلاثينيات حتى الثمانينيات هو (أفق توقع) القارئ في تعامله مع النص.... هذا المبدأ الذي يشير إلى شيء واحد: ماذا يتوقع القارئ أن يقرأ في النص؟ وهذا التوقع، وهو المقصود تحدده ثقافة القارئ وتعليمه وقراءاته أو تربيته الأدبية والفنية وصاحب هذا المبدأ هو ياكوس³³؛ الذي دعا إلى مقارنة تاريخية للقراءات المتعددة للنص الواحد؛ حيث أراد أن يضع تطور الأدب في سياق القراءات التاريخية لا في إطار تعلق الأدب بالتاريخ، محاولاً أن يستفيد مما قدمه غادامير "حين أراد أن يكشف عن الوعي التاريخي المتشكل باللغة، معتقداً أن الفهم لا يمكن أن يتم إلا من خلال التاريخ، لأن المرء - باعتقاده - لا يستطيع أن ينتزع نفسه من هذا التاريخ، لأنّه تاريخه الخاص، ولأنّ وجوده قد وسم فعلاً بما سبق"³⁴.

تقول الباحثة بشرى موسى صالح في هذا الصدد: "لقد أفاد أصحاب نظرية التلقي من الفيلسوف هانس جورج غادامير في نظريته إلى التأويل وعمل الفهم وإعادة الاعتبار إلى التاريخ في إعادة إنتاج المعنى وبناءه... فالصلة بين دلتاي وغادامير - والأول صاحب أثر كبير على الثاني - وأصحاب نظرية جمالية التلقي هي أن نشخص ونعيّن فهم الآخر (المؤلف) من خلال فهمنا"³⁵، وقد تمّت استعارت هذه الفكرة من رؤية وفهم غادامير للتاريخ. يقول مؤلفو كتاب أطلس الفلسفة في هذه النقطة: "تتطور سيرورة الفهم باتباع دائرة تأويلية يتم في وسطها تفسير الجزء انطلاقاً من الكل والكل انطلاقاً من الجزء". من هنا تعتبر الأحكام المسبقة التي تتناول كلفة المعنى أحكاماً ضرورية، على أن تكون واعية وقابلة للتصحيح أما أفق المؤول التاريخي فيتشكّل داخل "سيرورة الرواية" حيث يتم تبادل الحاضر والماضي بشكل مستمر"³⁶، حيث لا يكتمل فهم التاريخ إلا عبر فهم الفهم الخاص بالمعاصرين لتلك الأحداث التاريخية وتلقيهم لها حتى تتم النقلة إلى الفهم المعاصر والآني للأحداث التاريخية، فالمنطق الحاكم هنا منطق السؤال والجواب. ومن أهم القواعد الهرمينوطيقية التي صاغها غادامير من أجل تقديم مقارنة جديدة لمشكلة الفهم، نذكر ما يلي³⁷:

- 1- الفهم (compréhension) : وهي تعني تقديم أحكام مسبقة قابلة للتعديل فيما يلي من المراحل.
- 2- التأويل (Interprétation) : يحاول أن يقارب تلك الأحكام المسبقة مع المعطيات والنسائج النصية في صلاحيتها، من عدم ذلك.

3- التطبيق (l'application) : يتم من خلاله استعادة جميع القراءات و التأويلات على مر العصور.

فالقاعدة الأولى و الثانية هي متعلقة بالحاضر من الزمن و التاريخ لا بقديمه و غائبه.

فحسب "غادامير" إن العلاقة بين النص والقارئ تخضع لمنطق السؤال والجواب. إذ يصبح النص جواباً عن سؤال، وبعبارة أخرى لا أرى في نص ما إلا ما يعني. ومن الثابت أن الجواب الذي يقدمه النص عن سؤالي لا يكون كافياً تماماً وأبداً، لأن النص هو أيضاً يطرح أسئلة وعلى القارئ الآن أن يجد لها أجوبة. ويترتب على ذلك، أن منطق السؤال والجواب يقدم في شكل جدلي أو يقدم - بما أن الأمر يتعلق بالابستمولوجيا - في شكل حلقة هيرمينوطيقية. وللسبب ذاته، فإن فهم نص تاريخي ما، يعني: فهم السؤال الذي أجاب عنه النص، وبصفة عامة: البحث عما يسميه غادامير بـ "أفق الأسئلة"³⁸ L'horizon de questions.

يقول ناظم عودة مبيّن التحول الهرمينوطيقي الذي مثله إيزر متأثراً فيه بالتأويلية المعاصرة: "لقد كان إيزر يمثل التحول الذي طرأ على الهرمينوطيقا من دراسة معنى المؤلف، ومعنى النص المنتج بفعل "فهم" المتلقي وقد وجد أن في النص أبعاداً، لا يمكن تجاوزها في عملية "تحقق" المعنى الأدبي؛ الأول يتضمنها احتمالات النص بوصفها مظاهر خطاطية. أما البعد الثاني فهو الإجراءات التي يحدثها النص في عملية التلقي، وذلك لأنّ بنية التخيّل التي يبنى عليها النص إنّما تضع المعنى في إطار من الصورة الذهنية، والبعد الثالث هو البناء المخصوص للأدب على وفق شروط تحقق وظيفته التواصلية"³⁹، فالبعد الأولي ترميمي لفراغات النص، والثاني إجرائي مخصوص بالعمليات الذهنية، أما الثالث، فهو، يندرج في إطار العمليات التواصلية لتلقي وفهم النص من قبل المتلقي الذي يصبح شريكاً لمؤلفها.

وإذا قارنا ما يقوله إيزر في فكرة فعل التفاعل القرائي فسنجدّه يقترب إلى فعل التفسير الأدبي بالنسبة لهايدر الذي لا يقوم على أساس النشاط الإنساني: إنه ليس بالدرجة الأولى شيئاً نفعله، بل شيئاً يجب أن ندعه يحدث. يجب أن نفتح أنفسنا للنص، ونخضع أنفسنا لوجوده الغامض الذي لا يقبل الاستنفاد، سائحين لأنفسنا بأن يستوجبنا"⁴⁰، عبر تقديمه لنا الفراغات النصية ومطالبته لنا تأويلها وفهم انطلاقاً من موسوعتنا.

لكن، إيزر لم يهمل، كلياً، المؤلف وخصوصياته المعقدة والتي تختلف من واحد إلى آخر على مستوى الكتابة، وهذا يظهر في قوله: "إن التركيز الكلي على تقنيات المؤلف أو نفسية القارئ سيكشف لنا، بشكل ضئيل، عن عملية القراءة نفسها"⁴¹ فالمؤلف مقصود هنا في تقنياته الكتابية لا في جوانبه النفسية التي حصنها للقارئ الذي سيصبح مبدعاً عند فعل القراءة، في مقابل فعل المؤلف الذي يصبح مبدعاً عند فعلا الكتابة.

نعود إلى الهرمينوطيقي غادامير حيث نجده يؤكد على نقطة مهمة ومحورية متعلقة بتأويل العلامات؛ وهي أنّ العلامة بمفردها لا تحيط بالمعنى، بل الأمر يتعدى ذلك إلى العقل أو الذات المدركة لحدود هذه العلامة أو الإشارة التي تضم دلالة أي محتوى قابل للفهم من قبل العقل نفسه. والعلامات وسائل تحيل إلى مرجعيات يشتغل عليها الوعي حتى يعقلها أو يفهمها ولما كانت اللغة عند غادامير تحيل إلى الكينونة فقد جعلها السبيل إلى الفهم"⁴²، وهذا قريب إلى حد ما من مفهوم الدواين لدى هيدغر الذي لا يتردد في إزاحة مشكلة الذات والموضوع ومشكلة الوجود الأزلية بضربة سحرية واحدة، يعلن بموجبه أن مشكلة وجود الواقع الخارجي وكيفية إثباته مشكلة زائفة، لأن الدواين باعتباره وجود في العالم منوجد

منذ البدء ودائما في الخارج أي في العالم المؤلف وبالقرب من الأشياء.⁴³ لكن عملية إدراكه تتم بوجود الوعي الذاتي الذي يختار من الوجود ما هو ملائم له. يقول هيدجر: "إنّ الدزاین في اتجاهه إلى الموجودات وإدراكه لها، لا يحتاج لمغادرة مجاله الداخلي الذي تتصوره حبيسا فيه، وإنما هي دائما، وبجسب طبيعة وجوده الأولى من وجد دائما في الداخل، بالقرب من الموجود الذي يلتقي به في عالم تمّ اكتشافه بالفعل"⁴⁴، والدزاین الهيدجري يمكن جعله في مصاف المقولات الفلسفية التي ترجح الكفة للذات الإنسانية على الموضوع و الوجود بصفة عامة.

II - فعل القراءة: قراءة في الحثيات و الأوليات.

بعد أن أحطنا، إلى حد معين، بالأسس الإستيمولوجية لفعل التلقي نطرح الآن سؤالاً مركزياً ودقيقاً يتعلّق بالحيثيات الأساسية لنظرية التلقي. معزل عن التأثيرات الأخرى التي ساهمت في تكوينها مفاهيمياً وإجرائياً، لننتقل فيما يلي إلى الحديث عن الأوليات التي تتحكم في فعل القراءة في إطار هذا السؤال : متى حدثت التحوّلات الإجرائية الرئيسة في فلسفة القراءة الألمانية إذن؟ معزل عن التأثيرات الفلسفية الأخرى، إذا أخذنا بأنّ القراءة جزء يسير من عملية كلية وشاملة هي فعل التلقي، وفي كونها، ذلك النشاط العارف الذي يتخطى النصوص إلى النصّ القيمة، فيطرح حضوراً معرفياً، وأخلاقياً، وفنياً في آن واحد⁴⁵.

يرى حبيب مونسي أن هذا المنعرج أو التحول إلى فلسفة القراءة، حدث ابتداء من التحول الحداثي في القرن الرابع عشر الميلاد إثر تحولات مجموعة من المقولات، مثل: الحقيقة (La Vérité)، والقيمة (La Valeur)، والمنهج (La Méthode)، وذلك من خلال نشوء مفاهيم جديدة كانت أساس الانقلاب الفكري والمعتقداتي، الذي أحدث قطيعة كبرى مع الفكر المسيحي اللاهوتي القرسطي بدأ بالفردانية (L'Individualisme)، وعودة الاعتبار إلى الذات، واعتبارها مركزاً للكون، واتخاذها مقياساً تحيل على ذاتها كلّ شئ استحسننا واستهجاناً⁴⁶، ومن ثم، تراجع، التوجية المتعالي السماوي، المتمثل أساساً في الخطابات السماوية التي كانت عند رجالات الدين لا تقبل إلا تأويلاً وقراءة واحدة تترع إلى المعيار الأصل، باعتباره الحقيقة، لا غيره.

عندما نتحدث عن المفاهيم الإجرائية التي تتحكم في فعل القراءة، فسنكون في إطار الحديث عن المنظور النقدي للكثير من المقولات الفلسفية التي سبق لنا الحديث عنها أعلاه. لعل مفهوم التماثل وعلاقته بالتفاعل البيّناتنصي من أهم المفاهيم التي أطّرت للتلقي.

إن التماثل هو الشرط الأساس في التفاعل البين ذاتنصي ويمكنه تشبيهه بالتفاعل الاجتماعي بين الأفراد؛ "إذ التفاعل بين شخصين في الحقل الاجتماعي، مثلاً، لا يحدث بشكل أقوى إلا عندما ما يجهل كل واحد منهما هوية الآخر لأنّهما حينئذ يكونان عن بعضهما بعض تصوراً غير مطابق للحقيقة ويتصرفان على أساس هذه الصورة المفترضة عن بعضهما بعض"⁴⁷، وهناك مجموعة من المعطيات والمفاهيم النصية التي تساعد على إقامة عملية التفاعل، ومن ثم التواصل الذهني، منها: اللاتحديد، اللاشيء، البياض، الفراغ كلّها عوامل وظروف مساعدة .

يمكن أن يظهر التماثل، كذلك، في كون النص لا يتجاوز ذاته إلا من خلال وبواسطة القارئ، فهذا يعني أن القارئ يؤسس، أيضاً، وهما ما انطلاقاً من تفاعله واشتغاله على البنيات الأساسية للمنظور الجملي باعتبارها معطيات نصية... تجعل القارئ في موقع تقاطع بين التذكّر والترقّب (Retention-Protension)، فيكون التذكّر مسؤولاً عن اندماج القارئ في النص بينما يشير الترقّب إلى لحظة تحرر القارئ من النص⁴⁸.

أما فيما يتعلق بتفاعل البنية الذهنية للقارئ مع البنية اللغوية للنص لا تنظر نظرية جمالية التجاوب عند إيزر إلى النصوص الأدبية، كبنيات تقدّم المعنى جاهزا للقارئ. إنّها على الأصح تقترح أبنية لتوليد معاني محتملة، ولذلك فهذه الأبنية المقترحة نفسها معروضة ومكيفة لإدماج القارئ ليعيد بنيتها من جديد انطلاقا من فاعلياته الذهنية الخاصة. وهكذا تصبح البنية الذهنية للقارئ أثناء فعل القراءة جزءا لا ينفصل عن بنية النص نفسه⁴⁹، ومن ثم، فالمعطيات والمعاني المحصول عليها هي بالأساس نتاج تفاعل واندماج معطيات البنية الذهنية وتفاعلها مع بنية النص⁵⁰.

يحاول إيزر من خلال نظريته عموما، وطروحاته المتعلقة بمفهوم فعل القراءة، وإجراء التماثل النصي المنطوي تحت إطار التفاعل البيّناتنصي على وجه الخصوص، أن يجيب عن أسئلة تتعلق بالموقع الدقيق و المحدد للقارئ (الذات) في عملية القراءة، وما هي وظيفة النص و بنيته في حد ذاتها. وما هي دلالة التفاعل بين النص والقارئ، وكيف يصنع القارئ المعنى في سياق هذا التفاعل؟ وما هي الحدود بين الحقيقة والتأويل والوهم في مجموع هذه العملية؟ وما هي في الأخير شروط التفاعل ذاتها؟⁵¹، التي من خلالها يتولد المعنى باختلافاته الكثيرة عند تنوع القراءات وتعددتها لنص واحد من قبل عدة قراء أو من قبل قارئ واحد. ومن ثم سيكون تركيزنا على هذه الأسئلة في إطار عناويننا الفرعية، كما يظه رلدى إيزر اشتغال فلسفة الذهن (العرفنية) لديه أثناء عملية التفاعل البيّناتنصية.

تشكل عملية البيّناتنصية - كما ذكرنا آنفا- من قطبين رئيسيين: " هما القطب الفني، وهو النص كما أبدعه المؤلف، والقطب الجمالي، وهو التفعيل الذي ينتجه القارئ، وهذا يعني أن الإنتاج الأدبي لا يتطابق مع النص الأصلي ولا مع القراءة، وإنّما هو الأثر الذي يحدث نتيجة تفاعل القارئ مع ما يقرأه، ومن ثم، لا ينبغي البحث في النص على معنى مخبوء، وإنما ينبغي استطلاع ما يحتمل نفس القارئ عندما يقرأ"⁵²، وهذا نقد ضمني للطروحات النبوية التي ألغت المنظور الجمالي الذي يحمله القراء تجاه النص المقروء وحصرت الفني والجمالي في زاوية ضيقة، هي كيفية انتظام العلامات داخل النص، فأهملت فكرة أن القارئ هو الكاشف الحقيقي عن هذه الانتظامات والنسائج الفنية. هذا إذا اعتبرنا أن كلّ لغة، في وجودها الفعلي، هي نص نوعي يتمتع بكفاءة بنائية قادرة على إسقاط ماهيته على رعي متلقيه، غير أنّ طبيعة اللغة المخاتلة تضيف على نصها، أيّا كان نوعه، سمة أخرى ربما نقيضة للأولى، هي طواعيته المذهلة لفعل الوعي عليه، من ثم إضفاء ماهية خاصة بالوعي أكثر من خصوصيتها بالنص، ذلك أنّ اللغة، حتى في أشدّ صورها صرامة - أعني اللغة العلمية حمالة ذات أوجه"⁵³، ومن ثم يكون للمتلقى الدور المحوري في الكشف عن خصوصيات كل وجه وأنماط تشكلاته المختلفة عند كل قراءة جديدة للنص، إذ لتتم عملية فهم [النص] جيدا، ينبغي أن نميز في البداية معه [إيزر] بين النص *texte* والعمل *Euvre*، أي بين النص من حيث هو إمكانية خالصة والعمل من حيث هو مجموع المعاني التي يكونها القارئ أثناء القراءة. ولا ينتج عن هذا التمييز النسبية الخالصة أو اعتباطية القراءة والمعنى المكون أثناء هذه القراءة، لأن القراءة، بخلاف ذلك، تُدرّك باعتبارها بناء للمعنى انطلاقا من النص، أو إلى حد ما بحسب قواعد اللعبة المدرجة فيه. وزيادة على ذلك فبناء المعنى لا يتم في لحظة واحدة، مما يجعل المجال مفتوحا للأحكام المسبقة للقارئ، وإنّما يتم داخل إجراء كبير يطبعه التغير المستمر لبناءات المعنى ومراجعاته"⁵⁴.

في الإطار العام لذلك التفاعل ارتأت نظرية التلقي أنّه لا يمكن أن يقام بعملية تأويلية مقبولة بدون الربط بين العناصر الثلاثة؛ فالجتمتع يكتب النص، و النص يكتب المجتمع، والمجتمع أو شرائح منه تكتب في تلقي النص، وألحت على أن تلقي النص يجعل منه كينونة ووجودا متجددين، إذ يتلقي في سياقات مختلفة وأزمنة متنوعة ومن قبل متلقين متعددين⁵⁵، إلا أن التفاعل و الدينامية التي حركت العوامل الثلاثة في الظاهرة الأدبية كان مطرحة بقوة في طروحات فولفغانغ إيزر على

عكس يابوس الذي بقي ماثلاً باتجاه القارئ مغيباً البنية النصية إلى حد كبير جداً وهذا ضمن النقد الابستمولوجي للمناهج النقدية الذي كان سائداً في الستينيات والسبعينيات خصوصاً مع المنهج البنيوي الذي كانت له حضوة وشأن كبيرين عصرئذ.

لكن، في كثير من الأحيان ما يتحوّل ذلك " التفاعل إلى سطو من قبل نظرية التلقي على كثير من مفاهيم النظريات الأخرى أو إلى اندماجها ضمن تلك النظريات مما يجعلها تفقد هويتها وموقعها، وهذا الإشكال يحتم الرجوع إلى الإبستمولوجية المعاصرة التي تحلل العلاقات بين النظريات وتداخل المجالات النظرية.... كما أن بعض الأبحاث عزت هذا التفاعل الإجرائي والإبستمولوجي إلى جزئية نظرية التلقي وقصور إجراءاتها ومفاهيمها بالقياس إلى إنجازات السرديات المعاصرة والسيميوطيقا وتحليل الخطاب"⁵⁶، لكن هذه جميعها يمكن إدراجها في إطار العلائق الابستمولوجية التي تحكم المناهج في علاقاتها المختلفة.

إن فعل القراءة عند إيزر، على وجه الخصوص، يتجاوز في إطار نظرية التلقي " النظرة الأحادية التي تركز على أحد أقطاب تلك العملية دون سواها"⁵⁷، كما كانت بمثابة إثراء نظري وإجرائي للعديد من أطروحات "يابوس" الأساسية، وقد جعلت نظرية التلقي نظرية متكاملة وتفكيراً شمولياً جديداً⁵⁸. ومن أفكار يابوس الأساسية نذكر على سبيل المثال: "مسألة أفق انتظار الجمهور؛ أي عندما يتم تلقي نص ما فيحدث التأكيد confirmation أو التخيب déception. ويسمى يابوس المسافة الواسعة بينهما، التي تنشأ بين انتظار الجمهور والنص الذي ينجزها " بالمسافة الجمالية " distance esthétique، وهي تحدث في حالة تخيب [أفق] التوقع، إذ يمكن أن يحدث شيان اثنان: إما إن غضب الجمهور يؤدي إلى تغير في السلوكات والمعايير، أو حتى "تغيراً في الأفق" changement d'horizon⁵⁹. إذ لو تم التسليم بوجود أفق انتظار واحد، ومن ثم بمعنى واحد للنص في لحظة ما، فما هو القاسم المشترك الذي يسمح [بإقامة] مقارنة بين المعاني المحققة في مختلف الحقب إذا لم يكن هو النص ذاته - القاسم المشترك الذي يؤكد بمفرده البرنامج التاريخي لجمالية التلقي؟⁶⁰، وقد لاحظ معظم الباحثين و النقاد الإقصاء الذي وجهه يابوس للنص بكل تعقيداتها على حساب النظرة الأحادية التي كرّست للمتلقي لا غير.

لا يمكن أن نعزل فعل القراءة عن مفهوم آخر أساس لدى إيزر يساهم في خلق وتأطير التفاعل البينذاتنصي، إذ هو يشكل مناورة نصية مستمرة، تصاحب الإنسان، من أول قراءة يقوم بها مستكشفاً البنى النصية، إلى آخر نسيج يستقرّ عليه، أو هدف يروم نيله؛ وهذا المفهوم هو القارئ الضمني لأن من خلاله نستطيع أن يتبين لنا كيف يرتبط القارئ بعالم النص وكيف يمارس هذا الأخير تعليماته وتوجيهاته وتأثيراته التي تتحكم في بناء القارئ للمعنى النصي⁶¹، أي أين يتموضع القارئ داخل النص وكيف يساهم في ملء الفراغات النصية التي يكتشفها فتكون، إذن العلاقة جدلية بين الذات القارئة والنص المقروء.

إن القارئ الضمني لا يمتلك أي وجود حقيقي، فهو يجسد مجموع التوجيهات الداخلية للنص والتي تشكل شروط تلقيه، وبالتالي فإن القارئ الضمني لا يمتلك أي أساس تجريبي بل هو متجذر داخل النص ذاته⁶²، ولعل مفهوم القارئ الضمني يؤكد توجه إيزر غير الأحادي الذي يروم الجمع بين النص و المتلقي في علاقة جدلية على الدوام. إذ أن النص يصبح بمقدوره أن يفرض شروط تلقيه وبناء معناه⁶³، إذ النص يوجه المتلقي عبر فعل القراءة إلى بعض النقاط التي يروم المؤلف التركيز عليها عوض أخرى.

من ناحية أخرى، يمكن إدراج مفهوم الملاءمة - هذا المفهوم الذي تحدث عنه سيربر وولسن - في إطار نظرية التلقي لدى إيزر الذي يرى أن التفاعل بين بنية النص ووعي المتلقي يجب أن يتم في إطار مفهوم التفاعل، الذي يعني غياب

التناقض باعتباره معيارا للحقيقة. فينبغي أن يفسر كل مظهر من مظاهر النص تبعا للملاءمة بين الكل.⁶⁴، إذ أن مهمة المؤول، يجب أن تكون هي توضيح المعاني الكامنة في النص، وينبغي أن لا يقتصر على معنى واحد فقط. فمن الواضح أن المعنى الكامن الكلي الشمولي لا يمكن أبدا إنجازه من خلال عملية القراءة، ولذلك يتم فقط التأكد من ملائمة البنية النصية لوعي القارئ وتأويلاته.

على سبيل الخاتمة:

يمكن القول على سبيل خاتمة لبحثنا هذا أنه في إطار التحول الفلسفي الذي كان يحرك المناهج النقدية المعاصرة قد حدث منعرج ضخم داخل المنظومة الفلسفية التي حكمت المناهج النقدية؛ (الذات المؤلفة/ الذات المتلقية/ النص)، فأصبح العامل الأكثر أهمية من بين تلك العوامل، هو دون شك القارئ نفسه، أي مخاطب النص، وحيث أن الاهتمام الجوهرية كانت هي قصد المؤلف أو المعنى المعاصر، النفسي والاجتماعي والتاريخي للنص، أو الطريقة التي تشكل بها النص، فإنه بدا من الصعب أن يخطر ببال النقد أن النص ليس في وسعه أن يمتلك المعنى إلا عندما يكون قد قُري⁶⁵. ولعل هذا كله راجع إلى أن التزعة الذاتية في حقيقتها الفلسفية التي بدورها ترجع إلى التزعة الفردية التي وسمت الفلسفة الغربية في العصر الحديث، بعد أن كان أرسطو يسعى إلى "خدمة أهداف المجتمع وتحقيق سياسته، وآراء " أفلاطون" في المدينة الفاضلة. وتصور أوغسطين لمدينة الله. وغيرها من أفكار ومذاهب سياسية واجتماعية ودينية... تعبر عن أهداف عامة و"كلية"⁶⁶.

هذا كله، في حين كان يطرأ تحول للفكر الفلسفي الغربي من البحث في الجمعيات إلى الفرديات " فالفيلسوف يحاول جاهدا التوصل إلى آرائه ونظرياته بذاته، فيتقصى الوقائع، ويضع الفروض ويجري التجارب، حتى يصل إلى النتائج في غير خضوع لهدف معين.... فهو يعمل في حرية شخصية، في فردية وأصالة تتميز بها الفلسفة الحديثة التي أكدت ذاتية الفرد وسلطت الأضواء على شخصيته، وأهمية وجوده وفكره"⁶⁷.

ومن هنا، يمكن أن وصف فعل القراءة بأنه فعل حضاري وإنساني وفني وجمالي وفكري وبالخصوص فلسفي لم تعرفه الإنسانية قبلا، وإن كانت اليوم تتعثر في التفتح عليه من خلال القارئ، لا من خلال الكتابة لأنها تقيد لما قُري فقط، ينبغي الانطلاق منه لتحقيق الجديد، والجديد دوما"⁶⁸، إذ بعد أن كان فعل القراءة في الحضارة الغربية فعلا " تحت صبه فئة تظللها الكنيسة وتحرس على بقائها في فلكها فلا ترخص لها البوح بسر الخط وإذاعته بين العامة إلى أن جاء غوتنبرغ" وأفشى سرها بالطباعة"⁶⁹، كما عمل الصراع بين البروتستانت والكاثوليك حين نشر الأولون النص المقدس دون واسطة⁷⁰، على استمرارية هذا الفعل وتطور أساليبه وتنوعها.

شكلت نظرية التلقي عبر مرجعياته الفلسفية والدينية أرضية خصبة لتدارس هندسيات النص من جهات متنوعة، ولهذا انتشرت في أرجاء الوطن العربي، لكن اشتغال إوالياتها ومبادئها عند النقاد العرب بقي مختلفا؛ لاختلاف وتنوع الفهم، نرجو أن يكون البحث قد أسهم في توضيح بعض الآراء والأفهام تجاه هذه النظرية في صيغتها الإيزرية.

الإحالات والتهميشات:

* هناك من يسميها نظرية الاستقبال (إشكال المصطلح على مستوى الترجمة) : ينظر ترجمة كتاب روبرت سي هول، نظرية الاستقبال، مقدمة نقدية، ترجمة: رعد عبد الجليل جواد، ط.1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 1992.

٠٠ تعريف الناقد فولفغانغ إيزر:

وُلد فولفغانغ إيزر (Wolfgang Iser) سنة 1926 بألمانيا، ودرس الإنجليزية والفلسفة واللغة الألمانية. وقد اشتغل بالتدريس في عدة جامعات داخل ألمانيا وخارجها، ومنها:

- جامعة هيدلبورغ
- جامعة فورزبورغ
- جامعة كولوني
- جامعة كونستانس
- جامعة كلاسكو
- جامعة كاليفورنيا

وهو عضو بأكاديمية "هيدلبورغ" للفنون والعلوم وبالجمعية الإنجليزية للأدب المقارن، وبالأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم، كما أنه عضو بالأكاديمية الأوروبية.

له أنشطة أكاديمية أخرى : فهو مؤسس للجنة وحدة البحث المسماة " الشعرية والهيرمينوطيقا"، وهو عضو بمجلس تأسيس جامعة "بيليفيلد" ورئيس اللجنة المخططة لجامعة كونستانس وعضو اللجنة الانتقائية بمؤسستين جامعتين آخريين. ينظر: فولغانغ إيزر، فعل القراءة، ص 09.

** من المححف أن نحصر فلسفة التواصل في مدرسة كونستانس، فقد اهتمت مدرسة فرانكفورت بهذا الاتجاه الفلسفي خصوصاً مع جيلها الثاني والثالث؛ يورجان هابرماس وكارل أوتو آبل، وسيليا بن حبيب وأكسل هونيت الذي رأى في براديجم الاعتراف مخرجاً ضرورياً ووسيلة مهمة في سبيل الوصول إلى إقامة علاقة وطيدة بين الذوات.

≈ هذا المصطلح نقترحه للتدليل على ذلك التفاعل الذي يحدث بين النص من جهة، وبين الذات المتلقية من جهة ثانية، وقد نحتنا من المصطلح الذي اقترحه الدكتور علي عبود الحمداوي للتدليل عن ذلك التفاعل الذي يحدث بين الذوات الإنسانية (البينذاتية) نتيجة مجموعة من الظروف الملائمة للتواصل السليم هذا التواصل الذي تحدث عنه هابرماس في مشروعه السياسي. ينظر: علي عبود الحمداوي، الإشكالية السياسية للحدث، من فلسفة الذات إلى فلسفة التواصل، هابرماس أمودجا، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات، دار الأمان، لبنان، الجزائر، الرباط، 2010، ص 179.

² نظرية التلقي، إشكالات وتطبيقات، مجموعة مؤلفين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الرباط، 1993، ص 07.

³ جميل الحمداوي، نظريات القراءة أو التلقي، من موقع:

<http://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2012/01/09/247923.html>

⁴ كانت التفكيكية من أهم النظريات النقدية التي صرّحت بأهمية القارئ، فكانت هذه الفكرة الأخيرة الأساس المتين للالتقاء الذي جرى بين نظرية التلقي والتفكيكية؛ حيث تزامن هاته الأولى في مرحلتها الأخيرة مع ذروة المد التفكيكي في أوائل الثمانينيات، وهي نفس الفترة التي وصلت فيها نظرية التلقي إلى ذروة الاهتمام النقدي منذ بدايتها في الثلاثينيات مع ياكوب وإيكو، ينظر: جميل الحمداوي، نظريات القراءة أو التلقي، مرجع سابق.

⁵ يذكر رامان سلدن أن القارئ كان خاضعاً للموضوع المقروء لا قوانينه الذاتية/الموسوعية فعندما يفتح سالدن على سبيل المثال، رواية توماس هاردي (تحت الشجرة الخضراء) بطريقة عشوائية، ويقرأ: { " كم ستمكث؟ ليس طويلاً انتظر وتحدث إلي } يرى أنه ليس في هذه الكلمات بالقطع أي سبب لغوي يدفعنا إلى النظر إليها بوصفها كلمات أدبية، والسبب الوحيد الذي يجعلنا نقرأها إنما أدبية.... هو أننا نقرأها داخل مانعده عملاً أدبياً" ومن ثم يبرز ذلك العمل بمثابة غاية ترنسندالية / متعالية على الذات القارئة التي تنصاع إليها دونما أية محاولة لتفسير ذلك العمل وتأويلها خارج الإطار الموضوع- في مقابل الإطار الذاتي - الذي ورد في كينونته. ينظر: رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 28.

⁶ ينظر: رمان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ص 29.

⁷ رمان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ص ص 29، 30.

⁸ فولفغانغ إيزر، التفاعل بين النص والقارئ، ضمن كتاب، القارئ في النص، مقالات في الجمهور والتأويل، تحرير: سوزان روبين سليمان وإنجي كروسمان، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2007، ص 129.
⁹ عند الحديث عن فكرة التساند- وإن كان غير الذي نقصده في مقامنا من ناحية المستوى- من المهم أن نلفت النظر إلى طروحات الناقدة الجزائرية آمنة بلعلي في حديثها عن ضرورة البحث في بنية النص زائد الرجوع إلى السياق الخارجي للنص، فما هو مشترك هو البنية، حيث يقترح إيزر، كما ذكرنا، التساند بين البنية وفعل التلقي. وفي حديثنا عن التساند بين البنية والسياق، لا يمكن أن ننكر، كذلك، جهود الناقد المغربي محمد بازي في كتابه: التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ط 1، منشورات الاختلاف، الدار العربية ناشرون، الجزائر، لبنان، 2010. هذا رغم وجود نقاط اختلاف بين طرح الناقدين لا يسعنا المقام لذكرها.

⁹ رمان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ص 32.

¹⁰ رمان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ص 32.

¹¹ إيان ماكلين، التأويل والقراءة، "مجلة أفق"، ترجمة: خالدة حامد، 2002، ص 55، نقلا عن محمد عيساني، "من أفق الانتظار إلى أفق التوقعات، من أجل جمالية للتلقي"، ضمن الكتاب الجماعي: "التأويل و الترجمة مقاربات لآليات الفهم و التفسير، إشراف: إبراهيم أحمد، الدار العربية ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان، الجزائر، 2009، ص 254.

¹² للمزيد ينظر: بسام قطوس، المدخل إلى مناهج النقد الم، عاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 2005، ص 87.

¹³ ينظر: توماشوفسكي، نظرية الأغراض، اختيار الغرض، ضمن كتاب: نظرية المنهج الشكلي، ط 1، تر: إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدنين، ومؤسسة الأبحاث العربية، الرباط، بيروت، 1982، ص 193.

¹⁴ بسام قطوس، ص 87.

¹⁵ توماشوفسكي، نظرية الأغراض، اختيار الغرض، ضمن كتاب: نظرية المنهج الشكلي، ص 193.

¹⁶ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

¹⁷ يقابلها مصطلح gestalt باللغة الألمانية، وهو يعني الشكل والصورة.

¹⁸ محمد سالم سعد الله، مناهج مابعد النصية، معرفة نحو الآخر (مقال)، الموقع الإلكتروني: thiqaruni.org/general/547.doc
www.thiqaruni.org

¹⁹ جورج غازدا وريموندجي كوريسي، نظريات التعلم، ترجمة: علي حسين حجاج، مراجعة: عطية محمود هنا، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1983، ص 200.

²⁰ ينظر: النظرية الجشطالتيّة والظواهرية، من موقع: http://failosofi.blogspot.com/2011/03/blog-post_1382.html.

²¹ ينظر: إيزر، فعل القراءة، ص 05.

²² ينظر: تيري إنجلتون، مقدمة في نظرية الأدب، ترجمة: أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1991، ص ص 83، 84.

⁺ نشأ المنهج الفينومينولوجي نتيجة التعارض الكبير بين المنهج التجريبي (جون لوك، ديفيد هيوم) الذي يحرص المعرفة في التجربة الحسية، وبين المنهج المثالي (كانط، ديكرت) الذي يحرص حدوث المعرفة على العقل الترنسندالي؛ أي القبلي العارف بالحقائق وبين جهة ثالثة هي التزعات النسبية والشككية.

- ²³ ينظر: بيتركونزمان و فرانز بيتر بوركاد و فرانز فيدمان، أطلس الفلسفة، الطبعة الحادية عشر، ترجمة: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، 2003، ص 183.
- ²⁴ ينظر: عبد الكريم شرقي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، ط. 1، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم- ناشرون، الجزائر، بيروت، 2007، ص 214.
- ²⁵ ينظر: سماح رافد محمد، الفينومينولوجيا عند هوسرل، دراسة نقدية في التجديد الفلسفي المعاصر، الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1991،
- ²⁶ آدموند هوسرل، دروس في فينومينولوجيا الوعي الباطني بالزمن، ترجمة: لطفي خير الله، منشورات الجمل، بيروت، 2009، ص 43.
- ²⁷ فولفغانغ إيزر، التفاعل بين النص والقارئ، ضمن كتاب، القارئ في النص، مقالات في الجمهور والتأويل، تحرير: سوزان روين سليمان وإنجي كروسمان، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2007، ص 129.
- ²⁸ ينظر: عبد الكريم شرقي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، ط. 1، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم- ناشرون، الجزائر، بيروت، 2007، ص 206.
- ²⁹ ينظر: أندريه كريسون، تيارات الفكر الفلسفي، ط 2، ترجمة: نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت، 1982، ص 324، نقلا عن بشرى موسى صالح، نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2001، ص 35.
- ³⁰ آدموند هوسرل، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترנסدنتالية، ط. 1، ترجمة: إسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008، ص 66، ص 67.
- ³¹ ينظر: سعيد توفيق، الخيرة الجمالية، دراسة في فلسفة الجمال الظاهرية، هايدجر، سارتر، ميرلوبونتي، دوفرين، إنجاردن، ط. 1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1992، ص 337، ص 338.
- ³² مصطلحات أدبية، نظرية التلقي، من موقع: <http://www.annabaa.org/nbanews/65/298.htm>
- ³³ ينظر: عبد الكريم شرقي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، ط. 1، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم- ناشرون، الجزائر، بيروت، 2007، ص 162.
- ³⁴ ناظم عودة، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ص 148. ينظر أيضا: عبد الكريم شرقي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص 162.
- ³⁵ محمود سيد أحمد، دلتاي وفلسفة الحياة، القاهرة، 1989، ص 33، نقلا عن بشرى موسى صالح، نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، ص 39.
- ³⁶ بيتركونزمان و فرانز بيتر بوركاد و فرانز فيدمان، أطلس الفلسفة، الطبعة الحادية عشر، ترجمة: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، 2003، ص 237.
- ³⁷ Voir : Hans George Gadamer, vérité et méthode, les grands ligne de d'une hermneutique philosophique, lordre philosophique, édition seuil, paris, 1976, p 140, 141.
- ³⁸ أرنولد روث، دور القارئ في النقد الأدبي الألماني، ترجمة: عبد العالي مريني، من موقع: http://www.aljabriabed.net/n95_10marini.htm
- ³⁹ ناظم عودة، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ط 1، دار الشروق، 1997، ص 152.
- ⁴⁰ تيري إنجلتون، في نظرية الأدب، ص 84.

- ⁴¹ فولفغانغ إيزر، التفاعل بين النص والقارئ، ضمن كتاب، القارئ في النص، مقالات في الجمهور والتأويل، ص 130.
- ⁴² ينظر: مطاع صفدي، إستراتيجية التسمية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص 226. نقلا عن بشرى موسى صالح، نظرية التقي، أصول وتطبيقات، ص 40
- ⁴³ ينظر: اسماعيل مهنانة، الوجود والحداثة، هيدجر في مناظرة العقل الحديث، ط 1، دار الأمان، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط، الجزائر، بيروت، ص 65.
- ⁴⁴ Heidegger : contribution a la philosophie, p.133.
- نقلا عن: اسماعيل مهنانة، الوجود والحداثة هيدجر في مناظرة العقل الحديث، ص 65.
- ⁴⁵ ينظر: حبيب مونسي، فلسفة القراءة وإشكالية المعنى، من المعيارية النقدية إلى الانفتاح القرائي المتعدد، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2000، ص 05.
- ⁴⁶ ينظر: حبيب مونسي، نظريات القراءة في النقد المعاصر، ص ص 16، 17.
- ⁴⁷ فولفغانغ إيزر، فعل القراءة، ص 06.
- ⁴⁸ فولفغانغ إيزر، فعل القراءة، ص 05.
- ⁴⁹ ينظر: فولفغانغ إيزر، فعل القراءة، ص 07.
- ⁵⁰ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁵¹ ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁵² محمد حرماش، فعل القراءة وإشكالية التلقي، " مجلة علامات"، العدد 10، 1998، ص 35.
- ⁵³ محمد فكري الجزار، لسانيات الاختلاف، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1995، ص 05.
- ⁵⁴ أرنولد روث، دور القارئ في النقد الأدبي الألماني، ترجمة: عبد العالي مريني. موقع الكتروني مذكور سابقا
- ⁵⁵ نظرية التلقي، إشكالات وتطبيقات، ص ص 07، 08.
- ⁵⁶ المرجع نفسه، ص ص 08، 09.
- ⁵⁷ المرجع نفسه، ص ص 149، 150.
- ⁵⁸ المرجع نفسه، ص 150.
- ⁵⁹ أرنولد روث، دور القارئ في النقد الأدبي الألماني، ترجمة: عبد العالي مريني. موقع الكتروني مذكور سابقا.
- ⁶⁰ ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- ⁶¹ عبد الكريم شرقي، ص 185.
- ⁶² المرجع نفسه، ص 189.
- ⁶³ المرجع نفسه، ص 189.
- ⁶⁴ ينظر: فيرنالد هالين، فرانك شويرفيجن، ميشيل أوتان، بحوث في القراءة و التلقي، ص 16.
- ⁶⁵ ينظر: إيزر، فعل القراءة، ص 09.
- ⁶⁶ راوية عبد المنعم عباس، الفلسفة الحديثة والنصوص، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987، ص 20
- ⁶⁷ راوية عبد المنعم عباس، ص 21.
- ⁶⁸ حبيب مونسي، نظريات القراءة في النقد المعاصر، ص 11.
- ⁶⁹ المرجع نفسه، ص 16.
- ⁷⁰ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.